المحاضرةُ الحاديةَ عشرةَ

مباحثُ الإعجازِ في الكُتُبِ غيرِ المُسْتقلِّةِ عندَ المُحْدَثينَ

في هذا الفصلِ سيكونُ الحديثُ عنِ المباحثِ الّتي أَصْحَرَ بها المُحْدَثُونَ عنِ الإعجازِ القُرآنيّ في الكُتُبِ غيرِ المُسْتقلِّةِ في هذا العلمِ ، وإنَّما تحدَّثوا عنها من بابِ الاتِّصالِ المعرفيِّ والتَّماسِّ العلميِّ بعنوانِ الكتابِ وعَتَبَتِهِ ،ولاسيَّما الكُتُبُ المُتَّصلةُ بالتَّفسيرِ وعُلُومِ القُرْآنِ وغيرِها . والّذي يَتَمزَّى في هذه المباحثِ المعقودةِ أنَّها موجزةٌ في اسْتعراضِ المادَّةِ الإعْجازيَّةِ ، مع معاينةِ تَكرارِ ما جاء من بياناتٍ للعلماء السَّابقينَ إنْ قدماء وإنْ مُحْدَثينَ ؛ إلَّا أنَّ هذا التَّصوَّرَ لمْ يمنعْ من الإبراقِ بآراء وفُهُومٍ جديدةٍ في الدَّرْسِ الإعجازيّ وسيكونُ منهجُ الاختيارِ حاضرًا في تناوُلِ هذه المباحثِ في الكُتُبِ غيرِ المُسْتقلِّةِ المهمَّةِ ؛ بسببِ قوّةِ العرضِ وجِدَّتِهِ.

أولًا : روحُ المعاني في تفسيرِ القرآنِ العظيمِ والسَّبْعِ المثاني لشهابِ الدِّين الآلوسيّ البغداديّ (ت ١٢٧٠هـ)

يُعدُّ تفسيرُ الآلوسيّ (روح المعاني) منَ التَّفاسيرِ المُتأخّرة المهمّةِ ، إذ امْتازَ بالسَّعَةِ والشُّمولِ والإحاطةِ ((ففيه لُقَطٌ نفيسةٌ ودُرَرٌ ثمينةٌ التقطَها منَ التَّفاسيرِ الَّتي سبقتْهُ ، وزادَ عليها لآلئَ ناصعة وزيَّنَها بشذراتٍ فريدةٍ لنتقاها من بُحُور العلمِ والمعرفةِ))(١).

الإعجاز القرآني (أ.د. رحيم الشريفي)

ومِنَ المعالمِ المميَّزةِ في مبحثِ إعجازِ القُرآنِ الكريمِ عندَ الآلوسيّ ما أَبانَ عنها في مقدمة تفسيرِه (روح المعاني) بعنوان الفائدة السَّابعة (في بيانِ وَجْهِ إعجازِ القرآنِ) ، وهي :

١- الإعجازُ يُدْرَكُ بالوجدانِ وهو واقعٌ لا مِرْيةَ فيه

يرى الآلوسيُّ أنَّ إعجازَ القُرآنِ ممَّا لامِرْيةَ فيهِ ولا شُبْهةَ تعتريه ، وأَنَّ الاسْتدلالَ عليه ممَّا لايَحتاجُ إليه ، والأهمُّ بيانُ وجهِ الإعجازِ، والكلامُ فيه على سبيلِ الإيجازِ (٢).

٢- القُرآنُ الكريمُ معجزٌ بجملتِهِ وأبعاضِهِ

كشفَ الآلوسيُّ عن حقيقةٍ انعقدَ عليها الإجماع أنَّ القرآنَ الكريمَ معجزٌ بجملتِهِ وأبعاضِهِ ، قال : ((والّذي يخطرُ بقلبِ هذا الفقير أنَّ القُرآنَ بجملتِهِ وأبعاضِهِ حتَّى أقصر سورةٍ منه معجزٌ بالنَّظَرِ إلى نَظْمِهِ وبلاغتِهِ))(٣).

٣- فَرْشُهُ وجوهَ الإعجازِ

سارَ الآلوسيُّ على هَدْي مَنْ سبقوهُ منَ البيانيِّينَ في ممارساتهم التَّعامُليّةِ في الإعجازِ القُرآنيّ ، والّذي يبدو أنَّ تناولَ وجوه الإعجاز والرّد عليها كان فيه شيْءٌ منَ الإيجازِ والتَّقديم والتَّأخير من جهة وتكرار الوجوه من جهة أخرى ، زِدْ على ذلك معاودة الرّدّ على الوَجْهِ مرّةً أخرى في مواضعَ أخرى فضلًا عن استشهاداتِهِ القُرآنيّة المُناسبةِ والتَّفَنُّن في إيجادِ ردودٍ أخرى غير ما ذُكرتْ - من قبلُ - .

ومن أجلِ ترتيبِ المادّةِ وإحكامِها في عرضِ وجوه الإعجازِ الّتي ذكرها الآلوسيُّ فإنّنا سنقسمُ هاته الوُجوه على قسمينِ ، هما :

أ – وجوهٌ إعجازيَّةٌ غيرُ مرضيّةٍ عندَ الآلوسيِّ .

ويمكنُ تِبيانُ هاتهِ الوجوهِ غيرِ المرضيّةِ في ضوء معاينةِ بياناتِهِ إنْ ذكرًا وإنْ ردًّا ، وهي :

الوجهُ الأوَّلُ : النَّظْمُ الغريبُ والوزنُ العجيبُ والأسلوب المخالفُ

قال الآلوسيُّ : ((قدِ اختلفَ النَّاسُ في ذلكَ ، فذهبَ بعضُ المعتزلةِ إلى أنَّ وجهَ إعجازِهِ اشْتمالُهُ على النَّظْمِ الغريبِ والوزنُ الغريبُ والأُسْلُوبُ المخالِفُ لِما اسْتنبَطَهُ البلغاءُ منَ العربِ في مطالِعِه وفواصِلِهِ ومَقاصِلِهِ ، وردَّ بوجهينِ : الأوَّلُ : أنَّا لانُسلِّمُ المُخالَفةَ ، فإنَّ كثيرًا من آياتِه على وزنِ أبياتِ العربِ ، نحوَ قولِهِ تعالى : ﴿ وَمَنْ تَزَكَّى فإِنَّمَا يَتَزكَّى لِنَفْسِهِ ﴾(فاطر / ١٨) ... ومثلُهُ كثيرٌ . الثَّاني : أنَّا لو سَلَّمْنا المُخالفةَ ، لكنَّا لا نُسلِّمُ أنَّهُ لمُجرَّدِها يكونُ مُعْجِزًا ، وإلَّا لكانتْ حَماقاتُ مُسَيْلَمَةَ – إذْ هي على وزنِهِ – كذلك))(٤).

الوجهُ الثَّاني : البلاغةُ

قال : ((وذهبَ الجاحِظُ إلى أنَّهُ اشْتمالُهُ على البلاغةِ الّتي تتقاصَرُ عنها سائرُ ضُرُوبِ البلاغاتِ ، وردَّ بوجوهٍ . الأوّل : أنَّا إذا نظرْنا إلى أبلغِ الخُطَبِ وأجْزلِ الشِّعْرِ ، وقطعْنا النَّظَرَ عنِ الوزنِ بقصارِ القُرْآنِ كان الأمرُ ملتبسًا والمُعْجِزُ لا بدَّ أن ينتهيَ إلى حدٍّ لا يبقى معه لبسٌ ولا ريبة . الثّاني : أنَّ القُرآنَ غيرُ خارجٍ عن كلامِ العربِ ... الثّالثُ : أنَ الصَّحابةَ اخْتلفوا في البعضِ ، ولو كان منتهيًا إلى الإعجازِ بلاغةً لعرفوه وما اختلفوا . الرّابعُ : أنَّهم طَلَبوا البيِّنةَ مِمَّنْ أتى بشيءٍ منه ، ولو كانتْ بلاغتُهُ مُنتهيةً إلى حدِّ الإعْجازِ ما طلبوها . الخامسُ : أنَّ في كلِّ عصرٍ منْ تنتهي إليه البلاغةُ ، وذلك غيرُ موجِبٍ للإعجازِ ولا للدَّلالةِ على صِدْقِ مدَّعِي الرِّسالةِ))(٥).

ونسبةُ هذا الوَجْهِ إلى الجاحظِ محلُّ نظرٍ ، فقد عُرِفَ عنه أنَّه قال بنَظْمِ القُرْآنِ وبديع تأليفِهِ ، وأنَّ الرُّمَّانيَّ من أوائلِ مَنْ قال بالوجهِ البلاغيِّ .

الوَجْهُ الثَّالثُ : اشْتمالُهُ على الإخبارِ بالغَيْبِ

وردَّ الآلوسيِّ هذا الوجْهَ بردودٍ ذُكِرتْ – من قبلُ – مع ردودٍ جديدةٍ تُعَدُّ منَ التَّغيُّرِ والتَّحوُّلِ في الدَرْسِ الإعجازيِّ ، من ذلك ، الأوَّلُ : أنَّ الإصابةَ في المرَّةِ والمرَّتينِ ليستْ منَ الخوارقِ ، والحدُّ الَّذي يَصيرُ بهِ الإخبارُ خارقًا غيرُ مَضْبُوطٍ . الثّاني : يلزمُ أنْ يكونَ إخبارُ المُنجِّمينَ والكهنةِ عنِ الأمورِ المُغيَّبةِ مع كَثرةِ إصابتِها معجزةٌ . الثَّالثُ : يلزمُ أن تكونَ التَّوراةُ كذلكَ ؛ لاشْتمالِها كاشتمالِهِ . الرَّابعُ : يلزمُ أنْ يكونَ الخالي عنِ الإخبارِ بالغيبِ عنِ القُرآنِ غيرَ معجزٍ . (٦) .

الوجهُ الرَّابِعُ : القرآنُ الكريمُ غيرُ متناقِضٍ ولا مُختلفٍ

وأبطلَه الآلوسيُّ بوجهينِ ، هما : الأوَلُ : لانُسلِّمُ عدمَ التَّناقُضِ والاختلافِ فيه ، أما التَّناقُضُ فقوله تعالى : ﴿ وما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وما يَنْبَغِي لَهُ إنْ هو إلّا ذِكْرٌ وقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾(يس / ٦٩) والبحور كلُّها كذلك قال تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي

الإعجاز القرآني (أ.د. رحيم التميمي)

الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾(المؤمنون /١٠١)فحصر المانعِ في غيرهما إلى غير ذلك . الثَّاني : يظهرُ الاختلافُ في القراءات القرآنيّة ، ((كالصُّوف المنفوش)) بدل ﴿كالعِهْنِ المَنْفُوشِ ﴾(القارعةُ / ٥٠) ، وغير ذلك (٧) .

الوَجْهُ الخامسُ : موافقتُهُ لقضيةِ العقلِ ودقيقُ المعنى

وهذا الوَجْهُ يمكنُ عدُّهُ من اَماراتِ التَّحوُّلِ والمُتغيِّرِ في الدَّرْسِ الإعجازيّ . ورَدَّهُ الآلوسيُّ بأنَّهُ معتادٌ في أَكْثِرِ كلامِ البُلغاءِ ، وينتقضُ أيضًا بكلامِ الرَّسولِ غيرِ المُعْجِزِ وبالتَّوراةِ والإنْجيلِ (٨).

الوجهُ السَّادسُ : كونُه قديمًا

واعتُرِضَ بأنَّهُ يستدعي أنْ يكونَ كلٌّ من صِفاتِهِ تعالى كذلكَ ، وأيضًا الكلامُ القديمُ ممَّا لا يُمْكِنُ الوقوفُ عليهِ ، فلا يُتصوَّرُ التَّحدِّي به (٩).

الوجهُ السَابِعُ : الصَّرْفَةُ

ونسبَهُ الآلوسيُّ إلى أبي إسْحاقِ الإسْفراينيّ والنَّظَّامِ بصرفِ دواعي بلغاء العربِ عن مُعارضتِهِ ، وإلى الشَّريفِ المُرْتضى بسلبِهم العُلُومَ الَّتي لابدَّ منها في المُعارضةِ (١٠).

وردَّ الآلوسيُّ هذا الوجْهَ بردودٍ سِتَّةٍ ، يُعدُّ بعضًا منها من أماراتِ المتغيِّرِ في الدَّرْسِ الإعجازيّ . وهي ، الأوَّل : أَنَّهُ يستلزمُ أنْ يكونَ المعجزُ الصَّرْفة لا القُرآن ، وهو خلافُ ما عليه إجماع المسلمينَ - من قبل- . الثّاني : أنَّ التَّحدِّيَ وقعَ بالقُرآنِ على كلِّ العربِ ، فلو كانَ الإعجازُ بالصَّرْفةِ لكانتْ على خلافِ المُعتادِ بالنِّسْبةِ إلى كلِّ واحدٍ .الثَّالثُ : أَنَّهُ يسْتلزمُ أنْ يكونَ مثلُ القُرآنِ مُعتادًا - من قبلُ - ؛ لتَّحقُّقِ الصَّرْفةِ من بعدُ ، فتجوز المُعارضةُ بما وُجِدَ من كلامِهم مثل القرآنِ قبلَها . الرَّابعُ : وهو خاصٌّ بمذهبِ الشَّريفِ المُرْتضى أَنَّهُ لو كانَ الإعجازُ بفقدِهم العُلُومَ لتناطَقُوا به . ولو تناطَقُوا لشاعَ ، إذِ العادةُ جاريةٌ بالتَّحدُّثِ بالخوارقِ ، فحيثُ لم يكنْ دلَّ على فسادِ الصَّرْفةِ بهذا اللِّحاظِ ، وهذا الوجهُ هو أبعدُ الأقوالِ عند الآلوسيّ ، ((حتَّى إنَّ قولَ المُرْتَضى غيرُ مُرْتَضًى))(١١) . الخامسُ : واستدلَّ بعضهم على فسادِ القولِ بها بقولِهِ تعالى : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(سورة الإسراء / ٨٨) . فإنَّهُ يدلُّ على عجْزِهم مع بقاءِ قُدَرِهم ، ولو سُلِبوا القُدرةَ لم تبقَ فائدةٌ لاجتماعِهم؛ لأنَّهُ بمنزلةِ اجْتماعِ الموتى لاأثرَ لهُ . السَّادسُ : الإعجازُ بجملتِهِ ونسبه إلى الآمديّ (ت٦٣١هـ) (١٢).

ب – أَوْجِهُ إعجازيّةٌ مرضيّةٌ عندَ الآلوسيّ

أبانَ الآلوسيُّ عنِ الأوجهِ الإعجازيّةِ المرضيّةِ الظَّاهرة عنده ، وحدَّدَها في أربعةٍ ، وهي : النَّظْمُ ، البلاغةُ ، الإخبارُ عنِ الغَيْبِ ، موافقة العقل ودقيق المعاني قال : ((والَّذي يخطرُ ... أنَّ القُرآنَ بجملتِهِ وأبعاضِهِ حتَّى أقْصر سورةٍ منهُ مُعْجِزٌ بالنَّظَرِ إلى نَظْمِهِ وبلاغَتِهِ ، وإخْبارِهِ عنِ الغَيْبِ ، وموافقتِهِ العقلَ ودقيقَ المعنى))(١٣) . وقال أيضًا : ((فهذه الأوجهُ الأربعةُ هي الظَّاهرةُ في وَجْهِ إعجازِ القُرآنِ ، والمشهورُ عندَ الجُمهورِ الاقتصارُ على بلاغتِهِ وفصاحتِهِ ، حيثُ بلغتِ الرُّتبةَ العُليا والغايةَ القُصْوى الّتي لمْ تَكَدْ تَخفى على أهلِ هذا الشَّأنِ حتَّى النِّساءِ ، كما يُحْكَى عنِ الأصمعيِّ وقَف مُتعجِّبًا منَ امْرأةٍ تُنْشِدُ شِعرًا ، فقالتْ : أَتَعْجَبُ من هذا ؟ أَينَ أَنْتَ من قولِهِ تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ

الإعجاز القرآني (أ.د. رحيم الشريفي)

أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾(القَصَص / ٧) فقد جمعَ أَمرينِ ونهيينِ وبشارتينِ ، أي : مع ما فيه ممَّا يُدْرَكُ بالذَّوْقِ))(١٤).

وانتهى الآلوسيُّ أنَّ الإعجازَ المختصَّ بالقُرآنِ متعلِّقٌ ب (النَّظْمِ المخصوصِ) وإعجازِ نَظْمِهِ يكونُ في ضمِّ الحروفِ المبسوطةِ بعضِها إلى بعضٍ . تأليف هذه الكلماتِ بعضِها إلى بعضٍ فتصيرُ جُمَلًا . ضَمُّ ذلكَ إلى بعضٍ ضمًّا له مَبادٍ ومَقاطعُ ومَداخِلُ ومَخارجُ يُقالُ له : المَنْظُومُ ، أواخرُ الكلامِ (التَّسْجِيعُ) ، الوَزْنُ .(١٥) .

ثانيًا : النَّبأُ العظيمُ (نظراتٌ جديدةٌ في القُرآنِ الكريمِ) للدُّكتور محمّد عبد اللّه دراز (ت ١٣٧٧هـ)

يُعدُّ هذا الكتابُ منَ الكُتُبِ المهمّةِ في التَّعرُّفِ على آراء الدُّكتور محمّد عبد اللّهِ دراز في قضيّةِ الإعجازِ القُرآنيِّ ، فهو الباحثُ المنهجيُّ المُتفرِّدُ على حدِّ قول الدُّكتور محمّد رجب البيُّوميّ ، فقد رزق دراز نباهةً ساطعةً في الدَّوائرِ العلميَّةِ العالميَّةِ ؛ لأنَّهُ كان قامةً فكريَّةً وطرازًا خاصًّا منَ المُبدعينَ ، إذْ لمْ يكتبْ غيرَ الجديدِ الطَّريفِ الَّذي لم يسمعْ به القارئ(١٦).

تحدَّثَ دراز في كتابِه (النَّبأ العظيم) عن الإعجازِ في المرحلةِ الرَّابعة منَ البحثِ بعنوان (البحث في جوهر القُرآنِ نفسِهِ عن حقيقةِ مصدرِهِ) ، وقد راعى دراز في أكثرِ فقراتِ هذه المرحلة كما يقول : ((شيئًا منَ التَّفصيلِ والتَّحليلِ ، وشيئًا منَ التَّطبيقِ والتَّمثيلِ ، فلم أكْتفِ بالإشارةِ حيثُ تمكَّنُ العبارةِ ، ولا بالبُرْهانِ إذا أمكنَ للعَيانِ))(١٧).

وفي ظِلالِ معاينةِ بياناتِ دراز في هاتِهِ المرحلة الخاصَّةِ بتكشيفِ معالمِ الإعجازِ القُرآنيِّ ومَظاهِرِه تجلَّتْ مجموعةٌ منها ، تمثِّلُ إلماحاتِ دراز الثّاقبةَ وإشاراتِهِ القيّمةَ في الدَّرْسِ الإعجازيِّ ، وهي :

الإعجاز القرآني (أ.د. رحيم الشّريفي)

١- النَّواحي الثلاثُ للإعجازِ

دعَا دراز كلَّ مَنْ يطلبُ الحقَّ بإنصافٍ وموضوعيَّةٍ أنْ ينظرَ في أيِّ النَّواحي أحبَّ في وجوهِ الإعجازِ ، وهي ثلاثٌ :

أ – ناحيةُ أُسْلُوبِهِ (الإعجاز اللُّغويُّ) .

ب – ناحيةُ عُلُومِهِ (الإعجازُ العلمِيُّ) .

ج - ناحيةُ الأثرِ الَّذي أَحدثَهُ في العالَمِ ، وغيَّرَ به وجهَ التَّاريخِ (الإعجازُ الإصلاحيُّ التَّهذيبيُّ الاجتماعيُّ) (١٨).

ويرى دراز أنَّ معيارَ الاختيارَ في وجوهِ الإعجازِ أنَ يكونَ في النَّظَر في حُدُود البيئةِ والعصر الَّذي ظهرَ فيه ، أو يفترضُ أنَّهُ أظْهرُ في أرقى الأوساطِ والعُصُورِ التّاريخيّةِ ، من هنا فإنَّه حشَّدَ الأدلَّةَ والبراهينَ والتَّطبيقاتِ على العنايةِ ب(الإعجاز اللُّغويّ) ؛ لأنَّهُ وقعَ من جهتِهِ التَّحدّي بالقُرآنِ جملةً وتفصيلًا(١٩).

ولا يخفى أنَّ مُمارسةَ تِقْنِيَةِ اختار الوجهِ المُختار من جهة ، واختيار الإعجاز اللُّغويِّ يُعدُّ من دائرةِ المتحولِ والمُتغيِّرِ في الدَّرْسِ الإعجازيّ .

٢- القُرآنُ الكريمُ معجزةٌ لُغَويّةٌ

من أجلِ البرهنةِ على أنَّ الإعجازَ اللُّغويَّ هو الَّذي يحملُ شرفَ الإعجازِ القُرآنيّ ، قرَّرَ حقيقةً واقعيّةً مفادها : أنَّهُ كلّما ازدادتْ بصيرةُ المُتلقّي لكتابِ اللهِ تعالى بأسرارِ اللُّغةِ وإحسانٍ وقوّةٍ في تصريفِ القولِ ، وامتلاكٍ لناصيةِ البيانِ ازدادَ بقدرِ ذلك هضْمًا لنفسِهِ وإنكارًا لقوَّتِهِ وخُضُوعًا بكلِّيّتِهِ أمامَ أُسْلوبِ القُرآنِ (٢٠).

وعلى الرَّغْمِ من أنَّ القُرآنَ الكريمَ نزلَ في أزهى عُصُورِ البيانِ العربيّ وأرْقى أَدوارِ التَّهذيبِ اللُّغوِيّ ، وهلْ بلغتِ المجامعُ اللُّغويّةُ في أمَّةٍ منَ الأممِ ما بلغتْهُ الأمَّةُ العربيّةُ في ذلك العصرِ منَ العنايةِ بلغتِها ، فوجدَ العربُ أنفسَهم أمامَ طودٍ شامخٍ فما اسطاعوا أن يظهروه وما اسْتطاعوا له نَقْبًا ، فاستيأسوا واستيقنوا عجزَهم فركبوا متنَ الحُتُوفِ واسْتنطقُوا السُّيُوفَ بدلَ الحُرُوفِ ، وتلك حيلةُ العاجزينَ المُتكاسلِينَ (٢١) .

ويرى أنَّ الجديدَ في لُغةِ القُرآنِ أنَّهُ في كلِّ شأْنٍ يتناولُهُ من شؤونِ القولِ يتخيَّرُ أَشْرفَ الموادِّ وأمسَّها رحمًا بالمعنى المُرادِ ، وأجمعَها للشَّواردِ ، وأقبلَها للامتزاجِ ، ويضعُ كلَّ مِثْقالِ ذرَّةٍ في موضِعِها الَّذي هو اَحقُّ بها وهي أَحقُّ به ، إذ لايجدُ المعنى في لفظةٍ إلَّا مِرْآتَهُ النَّاصِعةَ وصُورتَهُ الكاملةَ ، ولا يجدُ اللَّفْظُ في معناهُ إلَّا وطنَهُ الأمينَ وقرارَهُ المكينَ (٢٢) .

٣- الرَّدُّ على الصَّرْفةِ

ردَّ دراز وجهَ الصَّرْفةِ الَّذي وصفها بالشُّبْهةِ بثلاثةِ ردودٍ ، هي :

الأوَّلُ : أنَّ الأسبابَ الباعثةَ على المُعارضةِ كانتْ موفورةً متضافرةً .

الثَّاني : نلحظُ همَمَ المُعارضينَ إلى أبعدِ حُدودِها .

الثَّالثُ : قدِ اسْتبانَ لهمُ العجزُ إلَّا بعدَ أنْ يُبْسِطُوا ألسنتَهم إليهِ ويجرّبوا قدرتَهم عليهِ (٢٣).

الإعجاز القرآني (أ.د. رحيم الشَّريفيّ)

٤ – الإعجازُ اللُّغويُّ الوجهُ المختارُ

أبانَ الدُكتور دراز عن قوّةِ الأسلوبِ القُرآنيِّ وحلاوتِهِ ، فكانَ فيها سِرُّ إعجازِهِ اللُّغوي ، ومن أجلِ التَّدليلِ على أنَّ هذا الوجهَ يحملُ شرفَ الإعجازِ – وحدَهُ – أشارَ إلى نظرتينِ في (القِشْرةِ السَّطْحيَّةِ للفظِ القُرآنيِّ) ، وهما :

أ – الجمالُ التَّوقيعيُّ في توزيعِ حركاتِهِ وسكناتِهِ ومدَاتِهِ وغُنَّاتِهِ .

ب – الجمالُ التَّنسيقِيُّ في رَصْفِ حُرُوفِهِ وتأليفِها من مجموعاتٍ مؤتلفةٍ مختلفةٍ (٢٤) .

ثمَّ أبرقَ بتبيانِ خصائصِ القُرآنِ البيانيَّةِ ؛ للتَّدليلِ على الوجْهِ الإعجازيّ اللُّغويِّ الّذي تبنَّاهُ ن مع التَّطبيقاتِ القُرآنيّةِ المهمّةِ .

حصرَ دراز خصائصَ القُرآنِ البيانيَّةِ في أربعِ مراتبَ ، هي :

أ – القُرآنُ في قُطعةٍ قطعةٌ منه .

ب – القُرآنُ في سورةٍ سورةٌ منه .

ج – القُرآنُ فيما بينَ بعضِ السُّورِ وبعضٌ .

د – القُرآنُ في جُملتِهِ (٢٥) .

وقدْ توقفَ دراز على خصيصتينِ من هاتِه الخصائصِ الأربع بيانًا وتفسيرًا وتطبيقًا ، وهما الأولى والثَّانيةُ ، ولم يُكمِلِ الحديثَ عن المَرْتبتينِ الثَّالثةِ والرَّابعةِ ؛ لأنَّه انتقل إلى الرَّفيقِ الأعلى .

وسنبينُ أهمَّ الفِقْراتِ الّتي تناولَها دراز في المرتبةِ الأولى (القُرْآنُ في قطعةٍ قطعةٌ منه) ، وهي (٢٦) :

أ – القصدُ في اللَّفظِ والوفاء بحقِّ المعنى .

ب – خطابُ العامّةِ و خطابُ الخاصّةِ .

ج - إقناعُ العقلِ و إمتاعُ العاطفةِ .

د البيانُ والإجمالُ .

ه – دّقَّةُ التَّعبيرِ القُرآنيِّ .

و – القُرآنُ إيجازٌ كُلُّهُ .

أمَّا الفِقْراتُ الَّتي تناولها في المرتبةِ الثَّانيةِ (القُرْآنُ في سُورةٍ سُورةٌ منه) ، فهي (٢٧) :

أ – الكثرةُ والوَحدةُ .

ب – إحْكامُ البُنيانِ القُرآنيِّ وتماسُكُهُ .

ج – سورةُ البقرةِ نموذجًا على تَماسُكِ بنيانِ القُرآنِ وإحْكامِهِ .

ويبدو في ظلِّ بياناتِ دراز أنَّهُ قد مارسَ حُسْنَ الاسْتنباطِ ودِقَّةِ التَّحليلِ وبراعةِ التَّعليلِ فضلًا عن الاستشهاداتِ القُرآنيّةِ الوافيةِ ، ويظهرُ أنَّه أبانَ عن متحوّلٍ ومتغيّرٍ في الدَّرْسِ الإعجازيِّ وهو الإصْحارُ بالوجْهِ الإعجازيِّ اللُّغويِّ وهو وجْهٌ جديدٌ لمْ نقف عليه في بياناتِ علماء الإعجازِ _ من قبلُ - .

الإعجاز القرآني (أ.د. رحيم الشَّريفي)

ثالثًا : في ظِلالِ القُرآنِ لسَيِّد قُطب الشَّاذليّ (ت ١٣٨٥هـ)

يُعدُّ سيِّد قُطب الشَّاذليُّ أديبٌ مطبوعٌ أسهمَ إسهامًا معروفًا في حركة التَّجديد والإصلاحِ الدِّينيّ ، وقد تفاعلَ القُرآنُ الكريمُ في نفسِهِ في رحلةٍ طويلةٍ قضاها معهُ فأنتجَ نتاجًا علميًّا زاخرًا في المكتبةِ القُرآنيّةِ ، بدأ منهج سيّد قطب القُرآنيّ الجماليّ الحركيّ بكتابِه (التَّصوير الفنِّيّ في القُرآنِ) ثمَّ أتبعه بكتابِ (مشاهد القِيامةِ في القُرآنِ) ثمَّ كتاب (العدالة الاجتماعيّة في الإسلام) وهو ثالث دراسةٍ قرآنيَّةٍ له ، وتبلورتْ جهودُه القُرآنيّةُ بتفسير (في ظِلال القُرآنِ) الّذي ظهر جزؤُه الأول عام ١٩٥٢م ٠(٢٨).

إنَّ سيِّدَ قطب لم يكتبْ كتابًا خاصًّا في الإعجازِ ، ولكن ما كتبَهُ عنِ القُرآنِ الكريمِ وهو كثيرٌ نجدُ فيه البحوَثَ القيّمة والإشارات الطريفة في الإعجازِ .

والَّذي يَهمُّنا في هذا الصَّددِ ما أبرقَ به سيّدُ قطب من مباحثِ في (الإعجازِ القُرآنيّ) في تفسيرِهِ (في ظِلالِ القُرآنِ) المجلد الأوَّل الجزء الثَّالث ، في معرضِ تفسيرِه قولِه تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى

وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾(سورة يونس /٣٨ – ٤٤) .

وفي ضوءِ معاينةِ بياناتِ سيّد قطبٍ في الإعجازِ في هذا القسمِ ، تحصّلتْ لي مجموعةٌ منَ المَعالِمِ والمَظاهرِ المهمّةِ ، وستكون على النَّحْوِ الآتي :

١ – القُرآنُ الكريمُ مصداقٌ من مصاديقِ قُدْرةِ اللّهِ تعالى ولايمكن أن يكون مفترًى من دون اللّهِ

أشار سيّد قطب إلى أنَّ القُرآنَ الكريم بخصائِصه الموضوعيَّةِ والتَّعبيريّةِ ، وبهذا الكمال في التَّناسُقِ والعقيدةِ ، وفي النِّظامِ الإنسانيِّ وحقيقة الإلوهيَّةِ وبيان طبيعةِ البشرِ وطبيعة الكونِ ، لايُمْكِنُ أن يكونَ مفترًى من دونِ اللّهِ ، فقدرةٌ واحدةٌ وهي قُدرةُ اللّهِ تعالى الّتي تُحيطُ بالأوائلِ والأواخِرِ وبالظَّواهِرِ والسَّرائرِ الّتي تمنعُ القُصُورَ والنَّقْصَ والعَجْزَ وغيرها من لوازمِ الجهل والضَّعْفِ (٢٩).

٢ – التَّحدِّي باقٍ والعَجْزُ ثابتٌ

يرى سيّد قُطب أنَّ تحدِّي باقٍ والعجزثابتٌ ، وما يزالُ ثابتًا ولنْ يُزالَ ولاسيّما للّذين يُدركونَ بلاغةَ هذه اللُّغةِ ويتذوَّقونَ الجمالَ الفنِّيّ والتَّناسُق فيها ، ويدركونَ أنَّ هذا النَّسقَ منَ القولِ لايستطيعُهُ إنسانٌ ، وكذلكَ الَّذينَ يدرسُونَ النُّظمَ الاجتماعيَّةَ والأصولَ التَّشْريعيّةَ وغيرها من الدِّراساتِ (٣٠).

الإعجاز القرآني (أ.د. رحيم الشّريفيّ)

٣ – استعراضُه وجوهُ الإعجازِ

أشارَ سيِّد قطب إلى وجوه إعجازيّة فضلًا عنِ الوجْهِ المختار عنده وهو (الإعجاز البيانيّ) ، قال : ((إنَّ إعجازَ القُرآنِ أبعدُ مدى من إعجازِ نَظْمِهِ ومعانيهِ ، وعجز الإنس والجنِّ عنِ الإتيانِ بمثلِهِ ، هو عجز كذلك عن إبداع منهجٍ كمنهجهِ يُحيطُ بما يُحيطُ به))(٣١) .

ويرى أنَّه لا يُمكنُ القولُ : إنَّ الإعجازَ البيانيَّ (إعجاز اللَّفظ والتَّعبير وأسلوب الأداء – وحده -) هو المعتبرُ فحسب ، ولكن الإعجاز المُطلق الَّذي يلمسُه الخبراءُ وفي النَّظْمِ وفي التَّشريعاتِ والنَفسيَاتِ ، فضلاً عن الإعجاز الموضوعيّ الذي يُدركُهُ مَنْ زاولَ فنَّ التَّعبيرِ ومَنْ له بَصَرٌ بالأداء الفنِّيّ ، ومَنْ زاولَ التَّفكيرَ الاجتماعيّ والقانونيّ والنَّفسيّ والإنسانيّ(٣٢) .

ويمكنُ بيانُ أهمِّ الوجوه الإعجازيّة عند سيّد قطب ، وهي :

أ – الإعجازُ البيانيُ .

ب – الإعجازُ الموضوعيُّ .

ج – الإعجازُ النَّظْمِيُ .

د – الإعجازُ التَّشريعيُّ .

ه – الإعجازُ النَّفسِيُّ .

و – الإعجازُ العلمِيُّ .

٤ - الوجهُ المختارُ (الإعجازُ البيانيُّ)

أبانَ سيّد قُطب عنِ الوَجْه المختار في الإعجازِ القُرآنيّ ، فيرى أنَّ (الإعجاز البيانيّ) القائمِ على الأداء القُرآنيّ المميّز والمعجز ، فضلًا عنِ التَّصوير الفنِّيّ الباهر ، والتَّرابُطاتِ المُحْكمةِ والتَّناسُقِ العجيبِ بين الموضوعاتِ المختلفةِ في النَّظْمِ القُرآنِيِّ.

وهذا الوجهُ لايُمكنُ إدراكُهُ ، فهو فوقَ حُدُود الطاقة البشريَّةِ ، فالأداءُ القُرآنيُ يمتازُ ويتميَّزُ منَ الأداءِ البشريِّ ، إذ له سلطانًا عجيبًا على القُلُوبِ ليس للأداءِ البشريِّ ، حتَّى ليبلُغَ أحيانًا أن يؤثِّرَ بتلاوتِهِ المجرَّدةِ على الَّذينَ لا يعرفونَ منَ العربيّةِ حرفًا(٣٣).

ويتجلَّى هذا الوجهُ الإعجازيُّ البيانيُّ في ظلالِ امتيازِ الأداء القُرآنيّ بالتَّعبيرِ عن قضايا ومدلولاتٍ ضخمةٍ في حيِّزٍ يستحيلُ على البشرِ أن يُعبِّروا فيه عن مثلِ هاتِهِ الأغراضِ ، وذلك بأوسعِ مدلولٍ وأدقِّ تعبيرٍ ، معَ التَناسُقِ العجيبِ بين المدلولِ والعبارةِ والإيقاعِ والظِّلالِ والجَوِّ ، فضلًا عنِ اسْتحضارِ المشاهدِ وتجسيمِ الأحداثِ وتصويرها تصويرًا ينفذُ إلى أعماقِ النَّفسِ ، كما لو المشهدُ حاضرًا وهو ما عُرِفَ بنظريّة (التَّصوير الفنِّيّ) (٣٤) .

ولا يخفى أنَّ هذا التَّصوّر الباصر والفَهْم المُعجبُ لهذا الوجهِ الإعجازيّ البيانيّ ، علاوةً على لوازمِ هذا الوجه ولاسيَّما ما عُرِفَ بهذه النَّظريّةِ (التَّصوير الفنّيّ) يُعدُ منَ المُتغيّر والمتحوّلِ في الدَّرْسِ الإعجازيِّ .

الإعجاز القرآني (أ.د.رحيم الترّيفي)

ونلمحُ هذا البيانَ في معرضِ تفسيرِهِ قوله تعالى : ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(سورة الأنعام / ٥٩) . فالمسألةُ في النَّصِّ القُرآنيِّ القصيرِ لا تخطرُ على بالِ الفكرِ البشريِّ بهذا الإطلاقِ ، فإنَّ أقصى ما يتَّجهُ إليه تفكيرُ البشر هو الانتفاعُ بالرَّطْبِ واليابِس ممَّا في أيديهم، فأمَّا التَّحدُّثُ عنه كدليلٍ للعلمِ الشَّاملِ فهذا ليس معهودًا في اتِّجاهِ البشرِ وتعبيراتِهم ، إنَ هذا المشهدَ الشَاملَ الوسيعَ العميقَ الرائعَ مشهدُ الورقِ السَّاقِط من شجرِ الأرضِ جميعًا ، والحبُّ المخبوء في أطواءِ الأرضِ والرَّطب واليابِس في أرجاءِ الأرضِ جميعًا لايتّجهُ إليه الفِكْرُ البشريُّ ولاتلحظُهُ العينُ البشريَّةُ ، عالمٌ لايكشفهُ إلّا اللّهُ تعالى فهو العالِمُ به والخبيرُ والمُشْرفُ والمحيطُ بكلِّ شيْءٍ الصَّغير والكبير ، الحقير والجليل ، المخبوء والظّاهر ، المجهول والمعلوم ، البعيد والقريب (٣٥).

وفطَنَ سيد قطب لحركةِ الموتِ والفناءِ وحركة السُّقوطِ والانحدارِ في قولِه تعالى : ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ . وحركة البُزُوغ والنَّماء في قولِه تعالى : ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ ، وحركة التَّعيم الشَّامِلِ الّذي يشْملُ الحياةَ والموتَ في قولِه تعالى : ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (٣٦).